ضروب سيرورة المعنى في شعر محمود درويش

-قراءة في قصيدة ضباب كثيف على الجسر

Diversification in the process of meaning in Mahmoud Darwish's poetry -Reading in the poem "Mist so dense on the Bridge"

د(ة). نسيبة مساعدية *

تاريخ الإرسال: 2021/12/23	تاريخ القبول: 2024/05/25	تاريخ النشر: 2024/06/30

الملخص:

لا غرو أن يمثل الشعر العربي حال العباد والبلاد في السراء والضراء، ويعرض آمالهم وآلامهم وقضاياهم وتصوراتهم الدينية والدنيوية، متميزا بالذاتية المتفردة المتوقدة شعرا خالدا، فمنذ القدم عُني اللغويون والأدباء بدراسة الشعر ليتطور مع تسارع وتيرة النقد القديم وصولا إلى العصر المعاصر، الذي عُرف بكثير من المناهج والنظريات والمدارس التي أرست قواعد جديدة في مسار الإبداع الأدبي عامة والشعري بخاصة، فتنوعت الآليات الإجرائية المُقاربة للنص الشعري، إن كانت نصية أو سياقية، إلا أنها تبحث في مجملها في مكونات النص الشعري وإبراز جمالياته ودلالاته المُتوارية خلف البُنى اللغوية.

لأجل ذلك ارتأينا ضرورة البحث في الإشكال الآتي: آليات حل وترحال المعنى في الشعر العربي المعاصر، انطلاقا من أنموذج يوائم ذلك وهو قصيدة ضباب كثيف على الجسر لمحمود درويش؟

الكلمات المفتاحية: سيرورة، معنى، شعر، معاصر، محمود درويش.

* د.نسيبة مساعدية Messaadia.noussaiba@univ-khenchela.dz

Abstract:

It is not a secret that Arabic poetry represents the true condition of people and the country, in which it reflects their hopes, pains, issues, and religious and worldly perceptions, distinguished by the unique and blazing subjectivity of immortal poetry. Curricula theories and schools of thought have established new rules in the course of literary creativity in general and poetic creativity in specific. The varied procedural mechanisms approaching the poetic text, whether textual or contextual, search in their entirety in the components of the poetic text and highlight its aesthetics and its hidden connotations behind linguistic structures.

we considered the necessity of researching the following problems:

Mechanisms of resolution and travel of meaning in contemporary Arabic poetry, based on a model that matches that, which is Mahmoud Darwish's poem Thick Fog on the Bridge?

Key words*: process, meaning, poetry, contemporary, Mahmoud Darwish.*

*** *** ***

المؤلف المرسل: نسيبة مساعدية Messaadia.noussaiba@univ-khenchela.dz

1. مقدمة:

انبنت الدراسات النقدية المعاصرة على علاقة ثنائية بين النص والقارئ(النص/القارئ)، تتناغم وتتكامل بحسب استعداد القارئ وممكنات النص، إذ أن القارئ عليه أن يتسلح بأدوات فنية وخبرات ثقافية تسمح له بمقاربة النص واستكناه أغواره.

ومع تنوع النصوص فإنها تحتاج إلى أُطر نقدية ترسم ملامحها، وتعطي بنياتها ودلالاتها يتوسل فيها الناقد أو القارئ خطوات تساعده على الإحاطة بالنص شكلا ومضمونا، وتجعله يستفيد من مختلف الدراسات النقدية النظرية والتطبيقية منها،

فيستطيع التواصل مع النص وفك شفراته «**التواصل الحق هو هذه اللحظة الثانية التي يتحقق فيها التشفير، بفضل محاولات التشفير التي يقوم بها المخاطب Interlocuteur، وهي محاولات ينبغي أن تتطابق بطريقة مثالية مع تشفير المتكلم**»[1] .

ومن النصوص التي حظيت بالاهتمام النص الشعري، لما يمتاز به من معانٍ متوارية خلف النظم الشكلي وهو بذلك«**ينزع نحو التقطير الشديد في انتقاء المواد وتنظيمها**»[2] باعتباره «**نظاما من العلاقات الإشارية والوقائع الأسلوبية والأبعاد الدلالية، تتشكل وحداته اللغوية ضمن أنساق بنوية يتحقق من خلالها النص وبها يحقق أدبيته، ينشر المتعة ويمنح الفائدة**»[3]، أي أنه لغة إشارية تستخدم العناصر الأسلوبية للخروج بالأبعاد الدلالية سواء العميقة أو السطحية، لتكون للوحدات اللغوية البارزة، الدور المحرك لبنية النص والمحقق لغايته والمثبت أيضا لخصوصيته الشعرية.

مثل العنوان المحطة الأولى التي ينطلق من خلالها القارئ كبوابة لولوج عالم المتن الشعري، ضمن « **التلقي البصري والإيحاء الذهني**»[4].بحسب الفرضيات التي يمنحها للقارئ فمرات يلتقي مع ما يتوافق وتصوراته وأحيانا أخرى يُصاب بخيبة أفق التوقع أو الانتظار بحسب مفهوم آيزروياوس، كما أن أمورا عدة تتحكم في قراءة العنوان، إن كان جملة طويلة أو قصيرة نوعية الخط إذا كان مرفقا بالعلامات غير اللغوية، لذا أُعتبر العنوان، أنه «**رسالة لغوية تعرف بتلك الهوية وتتحدد مضمونها وتجذب القارئ إليها وتغريه بقراءتها، وهو الظاهر الذي يدل على باطن النص ومحتواه**»[5]، ومن هنا أظهر الشعراء احتفاءً كبيرا به وبحضوره في نصوصهم الشعرية وتمايزوا في اختيار العناوين التي تعمل على إغراء القارئ واستدراجه للدخول في عالم القصيدة المجهول، بمعنى أن العنوان هو أول لقاء بين القارئ والنص.

وقد صاغ محمود درويش قصيدة بعنوان؛ **ضباب كثيف على الجسر**[6]، بنيته التركيبية جملة اسمية؛ المبتدأ ورد نكرة ضباب، أما الخبر فهو شبه جملة جار ومجرور، ويغلب على دلالة الجملة الإسمية الثبات وعدم الحركة والسكون لعدم وجود الفعل الدال على الحدث والممارسة والنشاط، فثبات الإسمية هو ثبات الصفة للموصوف؛

على الجسر ضباب كثيف؛ أي ذلك الضباب هو كثيف جدًا على الجسر تميز له ووسم، وهذا فيه مفارقة لما هو مألوف فالضباب ظاهرة طبيعية تتمثل في سحاب منخفض قريب من سطح الأرض، وغالبا ما تكون هذه السحب من نوع الرهل؛ وهو قطرات مائية عالية في الهواء ويحدث نتيجة تكاثف بخار الماء قرب سطح الأرض ويساعد على تكوين الغبار والدخان، تختلف درجة البخار باختلاف كثافته، حيث كلما زادت كثافة البخار كان الضباب أشد كثافة، ويُعرف الضباب بأنه سحابة تقلل من الوضوح إلى أقل من1كلم، فتنعدم الرؤية وتصعب الحركة.

إضافة إلى ذلك يظهر اختلاف في التركيب بين النكرة والمعرفة، ضباب/الجسر، أضافت المعرفة لمفردة الجسر تساؤلات عدة حوله فهذا الجسر معلوم ومحدد عند الشاعر، ولكن نحن نتساءل ما هو هذا الجسر وبين أي المكانين يربط؟ ومن أين بدايته ونهايته؟ فننظر إليه بمنظور منفتح التأويلات بخاصة أن الجسر يحفه ضباب كثيف، وبالمزواجة بين دلالة الضباب علميا وبين الجسر المعلوم والمجهول نلتقط اسقاطات عدة، فكما يحدث الضباب نتيجة تكاثف بخار الماء قرب الأرض وكلما زادت كثافته كان الضباب، فإن هذا الجسر الذي هو في الأصل للربط والوصل وتقريب المسافات وتسهيل التنقل وفك العزلة، لكنه عند الشاعر يصعب تحقيق غاياته (الوصل والربط)، بسبب الضباب فما سببه؟ ممكن وجود عائق تصعب معه الرؤية، والسير من الطرف الأول إلى الطرف الثاني؟ من يريد جعل العبور فوق الجسر أمرًا محفوفا بالمخاطر؟ من يشوش رؤية المارين؟ من يقصد إفساد لحظة الاستمتاع بالوصول إلى مقصده عند أحد طرَّفي الجسر؟ من يريد أن يغير دلالة الجسر من الوصل إلى القطع والانفصال؟ من يقلب هذه المفاهيم؟ من هو المعرقل؟

كذلك بيَّن الشاعر أن الضباب على الجسر كثيف، فهناك فرق لما يقول ضباب على الجسر وبين على الجسر ضباب، فالكثافة دليل على شدة انعدام الرؤية وصعوبتها وعلى اضطراب كل من يسير على ذلك الجسر، فالصياغة المكثفة للعنوان تثير وتثير تساؤلات القارئ. «**نحدد النص كجهاز عبر لساني، يعيد توزيع نظام اللسان بواسطة الربط بين كلام تواصلي يهدف إلى الإخبار المباشر، وبين أنماط عديدة من الملفوظات السابقة عليه، أو المتزامنة معه، فالنص إذن إنتاجية**»[7].

يتضح مما سبق أنه كلما حاولنا مع العنوان بدأت تنفتح العلامات اللغوية على مدارج التأويل، ولكنها لا تستقر أبدا بل تتوالد وتنسج رؤى مختلفة وجديدة، لكن الأكيد أن هذا الضباب الكثيف الذي يلف العابر على الجسر، ليس طبيعيا بل إنه مقصود ووراءه أهداف وغايات لنوايا سيئة سيكشف عنها مقابلة المتن.

2. الذات ما بين التشظي والالتحام:

تُحدثنا النفس عن أحوالها من حالات حزن وفرح، وكل ما يتصل بالحياة الإنسانية إما تصريحا أو تلميحا، ولكل شخص الحرية في اختيار الأداة التي يعبر بها عن ذاته فهناك من يختار الرسم أو النحت أو الإبداع الأدبي، أو الاندماج في المشاريع الإنسانية لمساعدة الآخرين، أو بطريقة سلبية الادمان على الكحول، المخدرات، وغيرها مما يُذهب العقل ويحطم القلب، والشاعر محمود درويش انتفضت ذاته لتعبر عن ما بداخلها بالشعر لأن الشاعر «**ملهم يفتق الأشياء ويصل إليها بما وهب من حس مرهف وانطباع سريع بالأشياء مؤثرا ومتأثرا**»[8].

نستشف في كثير من الأسطر الشعرية أن الذات تشظت إلى اثنين وكأنها في صراع ما بين ما ترغب وما هو موجود بين الحلم والواقع ما بين الأمل والألم:

قُلْتُ في الفَجْرِ يتَضَحُ الأَمْرُ

فَقُلْتُ لَه والمكَانُ يَمُرُ كإيْمَاءة بَيْنَنَا

مَا لمُكَانُ؟

فَقُلْتُ لَهُ لاَ تُرَاهِنُ عَلىَ الوَاقِعِي

إلى أيْنَ يَأْخُذُنَا الجِسْرُ؟

وهَلْ كَانْ هَذَا الطريقْ طَوِيْلًا إلى الجِسْرِ؟

قلت: وهَلْ كَانَ الضَبَابُ كَثِيْفًا عَلَى دَرَجِ الفَجْرِ؟

قُلُتُ لاَ أَتَذَكَرْ[9]

يُعبر الشاعر عن موقفه وكله توجس من صدى ذاته، خائف من صاحبه الذي يراقبه ويتبع خطواته طيلة الطريق إلى الجسر، كل الأماكن ضاقت عليه رغم رحابتها، لم يعد أي مكان يستوعب حزنه أو يهدئ من روعه أو يشجعه على المواصلة، الواقع أصبح لونه أسودا قاتما كالليل سرمدي يثقل ويطبق على قلب الشاعر المنتظر للصبح.

ولا يطيل الشاعر حديثه معنا كثيرا، حتى يعلن صراحة عن تشظي ذاته إلى اثنان يتنازعانه يأخذانه من مكان إلى مكان، يرسمان له في كل مرة طريق العبور هل سيعبر أم يبقى حبيس تشظي ذاته:

قلْتُ كمَ سَنَة تُشْبِهُنِي؟

قال كَمْ سَنَةً كُنْتَ أَنْتَ أَنَا؟

أَنَا اثْنَانِ فِيْ وَاحِدٍ أَمْ أَنَا وَاحِدٌي تَشَظَى إلى اثْنِيْنِ؟

ياَ جِسْرُ يَا جِسْرُ أَيُ الشَيئيين مِنَا أَنَا؟[10]

ما الذي يُدمي قلب الشاعر ويجعله ينقسم إلى قسمان؛ كل قسم يحادث الآخر واقفا ساكنا تعصف به الحياة، لماذا غصت دروب الشاعر بكل ما يعيق حركة سيره نحو الجسر والوصول إلى مقصده؟ سؤال الشاعر إيذان بالبحث عن ذاته والتخلص من تشظيه هو بحث عن حقيقته عن ذاته الضائعة في زوبعة الشتاء في زحمة الأشياء في أي شيء ولا شيء:

لا أُحِسُ بشَيءٍ

لا شَيءَ يُثْبِتُ أني أَنَا...

غَيْرَ مَوْتٍ صَرِيْحٍ عَلَىَ الجِسْرِ

ثم يقول: سَأَسْأَلُ أَوَلَ عَابِرٍ دَرْبٍ: أَشَاهَدْتَ شَخْصًا

عَلَى هَيْئَةِ الطَيْفِ مِثْلِي؟

يُفَتِشُ عَنْ أَمْسِهِ

سَأَبْحَثُ في المِيْثولُوجْيَا والأَرْكيُولُوجْيَا

وفي كُلِ جِيْمٍ عَنْ اسْمِيْ القَدِيْمْ

سَأَعْلَمُ أَني تَأَخَرْتُ عَنْ مَوْعِدِي

وسَأَعْرِفُ أَنَّ غَدِيْ مَر مُرّ السّحَابَة

مُنْذُ قَلِيْل وَلَمْ يَنْتَظِرْني

وسَأَعْلَمُ أَنَّ السمَاءَ سَتُمْطِرُ بعْدَ قَلِيْلٍ عَلَيّ

وَأَنِيْ أَسِيْرُ عَلَى الجِسْرِ

فَكَيْفَ أُعِيْدُ البدَايَة يَا صَاحِبِي: مَنْ أَنَا؟

قُلْتُ: أ مَازَالَ يَجْرَحُكَ الجُرْحُ يَا صَاحِبِي؟

قَالَ لِيْ لاَ أُحِسُ بشيء

وللأَسَفِ أَنْهى ذلَكَ بِقَوْلِه:

لاَ شَيَء يَثْبِتُ أَنِيْ أنَا[11]

يبدو أن رحلة الشاعر للبحث عن ذاته وعن هويته انقسمت بين أفعال؛ سأسأل، سأبحث، سأعلم، فهو لن يبقى مكتوف اليدين يرى ضياعه وتغيبه عن ذاته، لن يستسلم، لن تهزمه آثار الحزن والكآبة على وجناته، إن رحلته تحرك الذاكرة لتستعيد خيوط حكاية أسطورية عنوانها الأمل، خاض خلالها أوذيسيوس صعّاب وأهوال عرقلت في كثير المرات عودته إلى أرضه، لينعم بسلطانه وحضن عائلته وفرحة شعبه بانتصاراته على الأعداء وعلى ذاته المتعبة من مشاق السفر، ذاته المحطمة من ألم فراق الأحبة والأصحاب والبلاد، ذاته البائسة واليائسة من مغامرة العودة، صارع أوذيسيوس ذاته للتغلب على ما بها من يأس ووحدة وعلى كل الأخطار والمصائب التي لحقت به، انتصر للأمل وللحب انتصر لكل ما هو جميل ويستحق العيش لأجله، ذات محمود درويش تحلم بغد مشرق غد لا كره فيه ولا عداء لا موتى لا معذبون، غد في أرض الحرية

والسلام، تلك الذات تتنفس ذلك الحلم مثلما تنفسته ذات أوذيسيوس، انتظره كل من أحبّه ستنمو زهور البنفسج في صدور الصغار والكبار، سيرفع الطفل يديه كسلتان من ريحان ليستقبل السماء بالدعاء، لن تبكي الأمهات على فلذات أكبادها، ولن يحكون في بلادنا، يحكون في شجن، عن صاحبي الذي مضى وعاد في كفن، لن ننساه في زحمة الأشياء وزوابع الشتاء، سينتهي كل ذلك الجحيم، وستفتح أبواب مدينتنا، وستمحى آثار القدم الهمجية، وستقرع الأجراس وتؤذن المآذن ترحيبا بجموع المصليين:

فَقُلْتُ: نَزُوْرُ فُتَاتَ الحَيَاةَ، الحَياةُ كَمَا هِيَ

وِلِنَتَدَرَبَ عَلَىَ حُبِ أَشْيَاءَ كَانَتْ لَنَا

وَعَلَىَ حُبِ أَشْيَاءْ لَيْسَتْ لَنَا

وَإِنْ نَظَرْنَا إِلَيْهَا مَعًا مِنْ عَلٍ

كَسُقُوْطِ الثَلْجِ علَى جَبَلِيْ

قَدْ تَكُوْنُ الجِبَالُ عَلَى حَالِهَا

والحْيَاَةُ بدِيْهِيَةٌ وَمَشَاعًا [12]

بحث الشاعر عن ذاته ممتدا من أوذيسيوس وإلى محرك البحث google عبر مختلف العلوم:

سَأَحْمِلُ بَيْتِيَ عَلَى كَتِفِي...وَأَمْشِيْ

كَمَا تَفْعَلُ السُلْحُفَاةُ البَطِيْئَةُ

سَأَصْطَادُ نِسْرًا بِمَكْنَسَةٍ، ثُمَ أَسْأَلُ: أَيْنَ الخَطِيْئَة؟

سَأَبْحَثُ فِي المِيْثُوْلُوْجيا وفي الاَرْكيُولُوْجيَا

وَفِيْ كُلْ جِيْمٍ عَنْ اِسْمِي الْقَدِيْمْ

سَتَخْتَارُ إِحْدَى إِلَهَاتِ كَنْعَانَ لِيْ، ثُمْ

تَحْلِفُ بِالبَرْقِ: هَذَا هُوْ ابْنِيْ الْيَتِيْمْ[13]

عملية بحث الشاعر تلك في بقية العلوم (في كل جيم GEO)، متجذرة في مختلف العلوم وفروعها، ينبش فيها الشاعر في الماضي عسَّاه يجد شتات نفسه؛ مثل قطع اللعبة المتناثرة ويعيد تركيبها من جديد:

فَكَيْفَ أُعِيْدُ الْبِدَايَةَ يَا صَاحِبِي: مَنْ أَنَا؟

سَيُعِيْدُ الْبِدَايَةَ: وَسَأَعْلَمُ أَنَّ السَمَاءَ سَتُمْطِرُ بَعْدَ قَلِيْلٍ عَلَيَّ"

وَأَنِيْ أَسِيْرُ عَلَى الجِسْرِ

ذلك المطر هو الحياة لقوله تعالى ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَ شَيءٍ حَيَّ أَفَلَا يُؤمِنُوْنْ**﴾[14]، إنه المطر الذي سيعيد للأرض وما عليها هو: الخصب بعد الجدب هو النمو والاستمرار بعد الجفاف والخراب، ستعود الحياة إلى طبيعتها ستزيل ثوب الكساد والكآبة عنها، فستزهر الأرض وينمو الزرع بعد الذبول، إنه الغيث الذي يتمناه الشاعر أن يكون نافعا يصحب معه الأمل وهو يسير على الجسر، يمكن أن يصبح بداية لعهد جديد يرى فيه العباد البلاد بحلة جميلة، يبصرون الطريق إلى الحياة(الجسر).

أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الثاني، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الثاني، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الثاني.

3. الجسر: الحياة/ الوطن

تقابلنا مع لفظة الجسر في أول معطى بصري في جسد المدونة وهو العنوان؛ ضباب كثيف على الجسر، لفظة الجسر تم ذكرها عما يزيد عن عشرين مرة، أحيانا معرفة وأخرى نكرة ومرات منسوبة للشاعر، وعلى اختلاف ورودها إلا أنها اجتمعت في جزء منها على التشاكل مع دلالة الحياة، فالجسر يحيل إلى الحياة من ضفتها الأولى؛ الميلاد ونهاية الضفة الثانية؛ وهذا التشاكل يجعل هناك تواشج يربط بين الأسطر الشعرية، فكل سطر يترك صدى له في عقل ووجدان القارئ:

إنَّ الزَمَانَ يُدَّجّنُ حَتَّى الجِبَالْ

فَتُصْبِحُ أَعْلَي، وَتُصْبِحُ أَوْطاً مِمَا عَرَفْتْ.

إِلَى أَيْنَ يَأْخُذُنَا الجِسْرُ؟

قَالَ: وَهَلَ كَانَ هَذّاَ الطَرِيقْ

طَوِيْلاً إِلَىَ الجِسْرِ؟ [15]

يتبدى الجسر معادلًا موضوعيا للحياة التي يبحث فيها الشاعر عن ذاته المتشظية، يبحث عن محمود الذي كان هو ولكنه تفاجأ بخروجه منه تركه ليلعب دورا آخر دور صاحبه الذي يلازمه كظله، تركه ليبدأ معه حياة أخرى غير التي ألفها:

[عَلَى الجِسْرِ، فِيْ بَلَدٍ أَخَرَ

يُعْلِنُ السَاكْسُفُوْنْ انْتِهَاءَ الشِتَاءِ

عَلَى الجِسْرِ يَعْتَرِفُ الغُرَبَاءُ

بِأَخْطَائِهِمْ، عِنْدَمَا لاَ يُشَارِكِهُمُ

أَحَدٌ فِي الْغِنَاءِ][16]

وأَيْضًا: قَالَ لِيْ: كُلُ جِسْرِيْ لقِاَءٌ...

الجِسْرُ أُدْخُلْ فِيْ خَارِجِي، وَأُسَلِمُ

قَلْبِيْ إلى نَحْلَةٍ أَوْ سُنُوْنُوْةٍ

قلُتْ: لَيْسَ تَمَامًا، عَلىَ الجِسْرِ أَمْشِيْ [17]

ثُمَ يُنْهِيْ ذَلِكَ التَأَمُلْ بِقَوْلِهِ: إِلىَ دَاخِلِيْ، وَأُرَوِضُ نَفْسِيْ عَلَى

الانْتِبَاهِ إِلَى أَمْرِهَا، كُلُ جِسْرِيْ فِصَامٌ،

فَلاَ أَنْتَ أَنْتَ كَمَا كُنْتَ قَبْلَ قَلِيْلٍ

وَلاَ الكَائِنَاتُ هِيَ الذِكْرَيَاتُ

فَيَكْتَشِفُ حِيْنَهَا: أَنّا اثْنَانِ فِيْ وَاحِدْ

أَمْ أَنَا

وَاحِدٌ يَتَشَظَّى إلى اثْنَيْنْ

يَا جِسْرُ يَا جِسْرُ

أَيُّ الشَتَيْتَيْنِ مِنَا أَنَا؟ [18]

إنها الحياة تنقله من محطة إلى أخرى يرى فيها أشياء حلم بها وأخرى لم يعهدها بحلوها ومرها، حياة يكتشف فيها ذاته والعالم المحيط بها، فيا حياة أو يا جسر أين ذاتي؟؟

إنِيْ أَسِيْرُ عَلَى الجِسْرِ...

جِسْرٌ يَطُوْلُ وَيَقْصُرُ

ذلك الجسر يشبه مسرح حياته، تعرض فيه لمواقف مختلفة تباينت فيما بينها، ما انعكس على ذاته؛ فالجسر هو منه يدخل ويخرج ويمشي والجسر يطول به ويقصر عليه، لا يثبت على حال دون الأخرى يتقلب الجسر كما تتقلب الحياة؛ صحة /مرض، غنى/فقر، ألم/أمل:

وحَمْلَقَ فِي الجِسْرِ: هَذَّا هُوَ الْبَابُ،

بَابُ الحَقِيْقَةِ، لاَ نَسْتَطِيْعُ الدُخُوْلَ

ولاَ نَسْتَطِيْعُ الخَرُوُجْ [19]

حياة الشاعر لا تعرف الاستقرار لأن هناك ضبابًا كثيفًا عليها، عطّل حركة المارين إلى الضفة الأخرى أو الخروج من الاضطراب إلى الاستقرار، إنه الوطن المقسوم إلى أجزاء فصار نصف وطن ليس فيه حرية وطن مغصوب السلام:

مَشَيْنَا عَلَى الجِسْرِ عِشْرِيْنْ عَامًا

مَشَيْنَا عَلَىَ الجِسْرِ عِشْرِيْنْ مترًا

ذهابًا وإيابًا

...

وبَقِيْنَا عَلىَ الجِسْرِ عِشْرِيْنَ عَامًا

أَكَلْنَا الطَعَامَ المُعَلَبْ عِشْرِيْنَ عَامًا

لَبِسْنَا ثِيَابَ الفُصُوْلِ [20]

فالجسر أخذ منحًا دلاليا آخر؛ في البداية الحياة المتقلبة والآن الوطن الذي ينزف ألمًا وجراحاته أدمت القلوب، الوطن الذي مزقته القرارات العنصرية الهدامة:

بَابَ الحَقِيْقَةِ، لاَ نَسْتَطِيْعُ الدُخُوْلَ

وَلاَ نَسْتَطِيْعُ الخُرُوْجَ

ذَهَابًا وَإِيَابًا

تُتداول القضية ولا جديد فيها؛ ذهابا وإيابا، مع طول السنين لم يتغير شيء فالواقع الموبوء يفضح كل السياسات والتسويفات من الشرق والغرب:

يا شَارِعًا ضَيِقًا كَانَ يَحْمِلُنِيْ

في السَمَاءِ الفَسِيْحِ إلى بَيْتِهَا

في ضَوَاحِيْ السَكِيْنَةِ

أمازِلْتَ تَحْفَظُ قَلْبِيْ

عَنْ ظَهْرِ قَلْبْ،

وتَنْسَى دُخَانَ المَدِيَنةِ؟

قُلْتُ لَهُ: لاَ تُراَهِنْ عَلىَ الوَاقِعِيْ

فَلَنْ تَجِدَ الشَيء حَيًا كَصُوْرَتِهِ في

انْتِظَارَكَ... [21]

الحياة اليومية للمارين على الجسر الرابط بين الماضي والحاضر والمنفتح على المستقبل، يشي الجو العام بالكآبة، فهم لم يبصروا النور بعد، مازالوا قابعون ينتظرون

انقشاع الضباب، يأملون بأن يأخذ الضباب معه كل الألم، وأن يترك الشمس تشرق من جديد على الجسر، ليروا الطريق واضحا، حلم الشاعر هو حلم الجميع هو حقهم فليس لهم ذنب فيما حدث ويحدث:

سَأَحْمِلُ بَيْتِيْ عَلَى كَتِفِيْ...وَأَمْشِيْ

كَمَا تَفْعَلُ السُلْحُفَاةُ البَطِيْئَة

سَأَصْطَادُ نِسْرًا بِمِكَنَسَةٍ، ثُمَ أَسْأَلُ:

أيَنَ الخَطِيئَةُ؟ [22]

4. الفجر/ الحلم

لطالما شكلّ الزمن محورا هاما في الحياة الانسانية إن تسارعت دقاته أو كانت بطيئة، فكل ثانية تترك أثرها قصُرّ الزمان أو طال، والشاعر محمود درويش أراد للزمن أن يكون نواة أساسة في جسد القصيدة ويتضح ذلك من أول مقطع:

قَالَ لِيْ صَاحِبِي، وَالضبَابُ كَثِيْفٌ

عَلَى الجِسرِ:

هَلُ يُعْرَفُ الشَّيءُ مِنْ ضِدِهِ؟

قُلْتُ: فِيْ الفَجْرِ يَتَضِحُ الْأَمْرُ[23]

بالأضداد تُعرف الأشياء، ولكن للتأكيد أكثر فإن الفجر يوضح الأمور ولا يكون فيها التباسًا أو شكاً، لأنه يُجلي الغامض والمستتر، هذا بحسب المنطق المعروف لدى السواد الأعظم، لكن المفاجأة أن يقول الشاعر:

قَالَ: وَلَيْسَ هَنَالِكَ وَقْتٌ أَشَدُ إلتباسًا مِنَ الْفَجْرِ[24]

يبدو أن مفارقة تشع بين جنبات القول الشعري، كيف لا؟ والشاعر يضرب مسلمة بديهية؛ أن الفجر يُلقي بضوئه على الأشياء، ولكن الشاعر جعله أشد وقت التباسًا، أيعقل أن يصبح النور ظلمة والجلي مخفي والمعلوم مجهولًا، لقد تلبدت سماء

الشاعر وأمطرت مفاهيم جديدة فرضتها طبيعة تلك السحب السوداء، تغير الحال وأصبح صعبا استجلاء الموجودات، وأي شيء خارج الضباب الكثيف على الجسر، بمعنى اختيار العنوان شديد الصلة بالمتن، فذلك الفجر الملتبس هو سيرورة للضباب الكثيف على الجسر، يترابط ويتعالق معه بالنسبة للشاعر وللمارين على ذلك الجسر.

وعند تلمس بعض العلامات اللغوية نبدأ باستدراج المعنى فالشاعر سيوضح لِمَا كان الفجر أشد الأوقات التباسًا:

فاترْكُ خَيَالَكَ للنَهْرِ/

في زُرْقَةِ الفَجْرِ يُعْدَمُ فِيْ

بَاحَةِ السِجْنِ، أَوْ قُرْبَ حَرَشِ الصَنَوْبَرِ[25]

إنه الفجر بزوغه سيرورة لحملة الاعتقالات وسياسات الترهيب، والأكثر فظاعة شباب بعمر الزهور أحرق الرصاص وجناته، كل فجر يمضي فتا إلى المقصلة، يترك أحبابه يترك أحلامه، لا يترك رسالة تقول لأمه وأصحابه وداعًا، انتهت حياته اليوم وفجر الغد نهاية فتا آخر، فجر الشاعر سوداوي دموي ليس كما نعرفه، كل فجر هو نهاية هو مأساة هو ألم.

تبدو خيوط الفجر الأولى الممزقة لسوَّاد الليل ثقيلة جدا يتساءل الشاعر:

إلى أينَ يَأْخُذُنَا الفَجْرُ، والْفَجْرُ

جِسْرٌ، إِلَى أَيْنَ يَأْخُذُنَا؟

أصبح الجسر والفجر أيقونات دلالية متناسلة ومتباينة، إذ بات الزمان والمكان شيئًا واحدا (الفجر- جسر) الفجر جسر والجسر فجر، الأول ثابت والثاني متغير؛

قال: وهَلْ كَانَ هَذَّا الضَبَابُ

كَثِيْفًا عَلَى دَرَجِ الْفَجْرِ؟

هو يقصد بالسؤال: هل كان الضباب كثيفا على درج الجسر؟ لأن الدرج مادي ملموس فأراد العبث بالألفاظ وإشراك القارئ في عملية محاورة ذاته والكشف عن حال الجسر:

قَالَ لِيْ صَاحِبِي: لاَ أُرِيْدُ مَكَانًا

لِأُدْفَنَ فِيْهِ. أُرِيْدُ مَكَانًا لَأَحْيَا،

وأَلْعَنَهُ إِنْ أَرَدْتُ.

بالرغم من قساوة الفجر إلا أنه يعانق أحلام الصغار والكبار أحلام من يعشقون تراب أرضهم المقدسة، يتشاكل الفجر مع الحلم؛ الفجر يسبقه الليل والحلم يقابله الواقع وبعد الفجر يأتي النهار والحلم بعده الحقيقة حقيقة أن هذه الأرض لنا والضباب الكثيف على الجسر سينجلي مثلما ينسحب الفجر أمام ضوء النهَّار الساطع.

5.خاتمة:

في ختام هذه الورقة البحثية نتلمس ما يأتي:

- استطاع الشاعر إعادة تشكيل اللغة من أديم الوجع والواقع الموبوء.
- تشظت الذات الشاعرة إلى أكثر من ذات محّملة بالشجن والأمل والألم.
- رغم ضبابية الرؤية على الجسر إلا إنه يبقى هناك شعاع أو خيط من الضوء يجذبنا نحو الحلم بغد أفضل.
- استدراج المعنى في الشعر العربي المعاصر يحتاج خبرات المتلقي وتسلله من كل زوَّايا النص.
- تناوب السوَّاد والبيَّاض في القصيدة في توالد المعنى.

5. الهوامش:

[1]- جيرار دونول، السيميائيات أو نظرية العلامات، ترجمة عبد الرحمن بوعلي، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، 2004، ص135

[2]- يوري لوتمان، تحليل النص الشعري، بنية القصيدة، ترجمة بن محمد فتوح أحمد، دار المعارف، مصر،1995، ص7.

[3]- نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب الشعري والسردي، ج2، دار هومه للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص114.

[4]- محمد صابر عبيد، الفضاء الشعري الأدونيسي، دار الزمان للنشر والتوزيع، دمشق، 2012، ص205_206.

[5]- بشرى البستاني، قراءات في الشعر العربي الحديث، دار الكتاب العربي، لبنان، 2002، ص34.

[6]- محمود درويش، كزهر اللوز أو أبعد، ط1، فلسطين،2005، ص129.

[7]- جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة فريد الزّاهي، دار توبقال، ط1، المغرب، 1991، ص21.

[8]- محي الدين خريف، الشعر الشعبي التونسي أوزانه وأنواعه، مؤسسة النشر التونسية، تونس، 1987، ص15.

[9]- محمود درويش، كزهراللوز أو أبعد، ص131.

[10]- محمود درويش، كزهراللوز أو أبعد، ص139.

[11]- محمود درويش، كزهر اللوز أو أبعد، ص146.

[12]- محمود درويش، كزهر اللوز أو أبعد، ص145.

[13]- محمود درويش، كزهر اللوز أو أبعد، ص139.

[14]- سورة الأنبياء، الآية 30.

[15]- محمود درويش، كزهر اللوز أو أبعد، ص131.

[16]- محمود درويش، كزهر اللوز أو أبعد، ص131.

[17]- محمود درويش، كزهر اللوز أو أبعد، ص135.

[18]- محمود درويش، كزهر اللوز أو أبعد، ص135.

[19]- محمود درويش، كزهر اللوز أو أبعد، ص 144.

[20]- محمود درويش، كزهر اللوز أو أبعد، ص136_145.

[21]- محمود درويش، كزهر اللوز أو أبعد، ص131.

[22]- محمود درويش، كزهر اللوز أو أبعد، ص139.

[23]- محمود درويش، كزهر اللوز أو أبعد، ص129.

[24]- محمود درويش، كزهر اللوز أو أبعد، ص129.

[25]- محمود درويش، كزهر اللوز أو أبعد، ص129.